(المدى) في سامراء

نهارها هادئ وليلها قلق!

لا دوائر... ولامدارس ... ولا زوار ...

تجولت (المدى) طيلة يومين في مدينة سامراء والمناطق المحلية حول المدينة، كما (عاينت) وضع المدينة في الداخل ومعاناة السكان في ظل اقتصاد شبه مشلول بسبب عزل المدينة عن محيطها وقطع اتصالها بالمدن الاخرى، وساعات منع التجول التي ربما جاوزت العشر ساعات يومياً، وغياب الدوائر الرسمية وانقطاع الدراسة وامتناع وفود زوار العتبات المقدسة عن التوجه الى المدينة.

سامراء/ صافي الياسري

ويلاحظ الوافد الى سامراء هدوءها الحذر في النهار، وانهيار هذا الهدوء نسبياً في الليل، وعلى العموم فإن مؤشر الهدوء في المدينة دفع بالسلطات المسؤولة الى تقليص ساعات منع التجول، ما دعا السكان الى الاستبشار برغم تخوفهم من الاحتمالات غير المحسوبة التي قد تؤدي الى انفجار الوضع ثانية..

شمالا نحو سامراء

في الفجر، عند ساحة بوابة بغداد، المدخل الشمالي/ يمكنك مشاهدة (مسطر النساء) وصبية (الجلكانات) باعة البنزين على جانبي الطريق يوقدون بعض الحطب لإنارة بقايا ظلمة خفيفة في طريقها للانقشاع وربما للتدفئة، وهم جميعاً نساءً واطفالاً نتاج الارث المزري، للحكم البائد، الذي كان قائماً على الافقار والتجهيل والقمع، بكل معطيات ماضي عوائلهم وواقعهم الحاضر ومستقبلهم المجهول.

ولن تبتعد كثيراً صعوداً الى الشمال حتى تفاجئك الطوابير الطويلة للسيارات والشاحنات قريباً من محطات البنزين، وتزداد هذه الطوابير طولاً كلما اقتربت من بلد وسامراء، وهنا يحدثك السكان عن ازمة الوقود الطاحنة التي تلف منطقتهم، وكيف ارتفع سعر برميل الكاز سعة ٢١٠ لتراث الى اكثر من ٢٥ الف دينار، والكاز هنا ضروري ليس للشاحنات والمكائن والآلات الزراعية وحسب، وانما ايضا لتشغيل مضخات الارواء التي تعتمد عليها مزارع وبساتين المنطقة.

ارتال في الطريق

وحتماً ستضايقك كثيراً تلك الارتال الامريكية التي لا تنتهي وهي تستخدم الطريق الستراتيجي بجور واضح، فتجبر سيارات النقل العام والخاص المدني على ان لا تتجاوز ارتالها، او هي تقطع الطريق في هذه المنطقة او تلك من المناطق التي تخضع للمداهمات مع ساعات الصباح الاولى، مما يعرقل السير ويمنع المرور احياناً ساعات عديدة، ولا سيما في مناطق التاجي والطارمية والمشاهدة والضلوعية والاسحاقي وقريباً من معسكرات الجيش العراقي القديمة التي حولتها القوات الامريكية الى ثكنات وقواعد لجنودها ومما زاد من اهمية الطريق الستراتيجي انه باتت تسلكه ايضاً ارتال الشاحنات التي تحمل المستلزمات العسكرية والذخائر وصهاريج الوقود، وهي تستهدف بإستمرار من قبل مسلحين يهاجمونها في مناطق محددة من خلف الاكمات او الاشجار الكثيفة، وقد لاحظنا ان الجرافات العسكرية بدأت بتسوية هذه الاكمات والتلال وقامت بقطع اشجار اليوكالبتوس على جانبي الطريق وتجريف شجيرات الدفلة في الجزرة الوسطية.

حين تهاوى البرج

ولن تجد فاصلة زمنية طويلة بين دورية واخرى لطائرات الهيلكوبتر المتخصصة بحماية ومراقبة الطريق وجوانبه والقرى القريبة منه، وملاحقة المسلحين الذين قد يستهدفون الدوريات الآلية او ارتال الشاحنات والصهاريج على الطريق وكذلك يمكنك مشاهدة بعض المفارز الجوالة على نقاط ثابتة ومتحركة وابراج استهدف المسلحون واحداً منها فاسقطوه ارضاً واحرقوا الى جانبه احدى سيارات الحرس الوطني، وما زال هيكل السيارة قائماً الى جوار البرج المدمر.

نجتاز الطريق الفرعي الى مدينة - بلد- هنا ينصب باعة (رمان بلد) مناضدهم على جانبي الطريق وقد صفوا على سطحها حبات الرمان بطريقة تغري بالشراء.

ونواصل شمالاً حتى ناحية الاسحاقي التي تحولت مقدمتها الى محطة استراحة وتزود للسيارات والشاحنات العابرة بإتجاه المحافظات الشمالية وايران وتركيا وسوريا.

هياكل محترقة

تفرعات نهر الاسحاقي تخترق الطريق صوب المزارع غرباً وهنا يحدثك الفلاحون والمزارعون عن بعض لواعجهم مع المسلحين، يقول المهندس الزراعي حسام الزيرجاوي، وهو مهندس زراعي كان يعمل في مؤسسة الاسحاقي سابقاً، ان بعض المسلحين لا يتورعون عن شيء، فقد فجروا العام الماضي، ضفاف احد الجداول التي تأخذ الماء من نهر الاسحاقي وتروي مزارعنا ما ادى الى غرقها. وقد تلفت مزروعات الرقي والبطيخ التي بذلنا لانتاجها جهداً ومالاً لا يستهان به.

نواصل الصعود حتى منطقة المفرق، وخلال الطريق يمكننا مشاهدة هياكل عدد من الشاحنات المحترقة بفعل هجمات المسلحين الذين يتهمون سائقيها بالتعاون مع الامريكان وهنا يتفرع طريق جانبي يتجه الى سامراء ويواصل الطريق الستراتيجي الصعود الى تكريت وبيجي والموصل.

وبين المفرق ومنطقة القلعة ومدخل سامراء تتوزع عرائش القصب على جانبي الطريق عارضة منتوج المدينة الاكثر شهرة في العراق، الرقي السامرائي.

دخول المدينة المطوقة

مدخل المدينة - عند الجسر- ينتهي الطريق وهنا يجابهك طابور طويل جداً من السيارات التي تنتظر دخول المدينة، فيرشدك الآخرون الى السبيل الاسرع، وهو السير على الاقدام وصولاً الى مفرزة التفتيش، ومن ثم صعود اية سيارة تتجه الى المدينة وفعلاً تحركنا الى تلك المفرزة بعد ان تأكدنا ان الطريق الجانبي عبر دجلة بواسطة (العبرة) مغلق تماماً وممنوع.

المفرزة هي مجموعة من جنود الحرس الوطني الذين يقومون على تنظيم حركة السيارات، ففي كل خمس دقائق تنطلق سيارتان حتى مفرزة التفتيش الاخرى التي تقف على مبعدة مئة متر تقريباً ومحمية بدعامات اسمنتية واسلاك شائكة لتجري تفتيشاً دقيقاً على السيارات والركاب لتسمح فيما بعد بدخول المدينة، ويمكن في هذا المكان ملاحظة حجم الدمار الذي الحقه القصف بالمنشآت والمباني التي كانت قائمة ومنظر الارض المحروقة، وجدران (مبنى) للدفاع المدني دمرته سيارة مفخخة فجرها انتحاري في المبنى قبل عدة اشهر وراح ضحيتها عدد كبير من رجال الشرطة والدفاع المدني.

هذه هي اجراءات الدخول، اما عند الخروج فيمكنك ملاحظة طابور آخر طويل على امتداد شارع المعمل (معمل الادوية) حيث تقف مفارز الحرس الوطني والشرطة وتقوم بتفتيش العربات والاشخاص، وتتجول عربات القوات الامريكية وآلياتها بمشاركة عربات تقل عناصر من الحرس الوطني تحمل العلم العراقي، يمرون عبر عدد من شوارع المدينة شاهري السلاح. ومن هذا الشارع يمكنك الاتجاه الى بقية احياء ومناطق المدينة، فها هو معمل ادوية سامراء قد فتح ابوابه من جديد وعاد موظفوه وعماله الى الدوام، وها هي الملوية ترغمك على التطلع الى شموخها واستقراء تاريخها.

انفراج بطيء يتمثل في تقليص ساعات منع التجول

مع الاهالي

يقول عدد من سكان المدينة ان ارزاقهم قد انقطعت بسبب الاحداث، فقد كان يؤم المدينة يومياً ما يقرب من عشرة آلاف زائر اغلبهم من الايرانيين مما يجعل حركة السوق في المدينة في ازدهار ينعكس رفاهاً على عموم ابناء المدينة ويتمنى هؤلاء وخصوصاً اصحاب المحلات التجارية والمطاعم عودة الهدوء الى المدينة لتعود الاحوال الى ما كانت عليه سابقاً، وهم يتهمون جهات غريبة واجنبية بمحاولة جر المدينة الى صدامات خاسرة تدفع فيها اثماناً تفوق قدرتها ومن دون نتيجة.

ويقول الشيخ عباس الشيخ اشرف الحسني رئيس مجلس شيوخ العشائر في سامراء: ان المدينة لم تضرب بالصواريخ، ولم يحصل فيها قتال، ومع ذلك فقد جرت الامور فيها نحو انفلات امني كبير، وبصراحة، نحن في دوامة لا نعرف كيف نخرج منها ولن نخدع انفسنا نحن نحاول لكن حتى الآن النتائج غير مرضية، والامريكان ما زالوا عاجزين عن فهم خصوصية المدينة ومستمرين في ارتكاب الاغلاط لتزداد الامور تعقيداً، لقد قتل ابرياء كثيرون وهناك تعقيدات كثيرة تراكمت ولم يعد ممكناً تجاوزها بسهولة وليس ثمة من يساعدنا على اجتيازها لنجد انفسنا مقيدين بلا حول ولا قوة، ومع ذلك نحن لم نيأس، لدينا بعض الصلاحيات ونسعى لتطويرها، انما همنا الامني يبقى هو الاساس.

محاولات ومعوقات

ويذكر عدد من الاهالي ايضاً، ان مجلس الشيوخ والمجلس البلدي واعيان المدينة ورجال الدين فيها عقدوا عدة اجتماعات فيما بينهم ومع محافظ صلاح الدين للخروج بالمدينة من ازمتها الا ان هناك دائماً من لا يريد للمدينة الاستقرار ويفشل كل الحلول التي يمكن ان تجلب الهدوء الى المدينة وتجنيبها الخراب ودوامات الموت.

احد الضباط الذين خدموا في احد الاجهزة الامنية السابقة يقول: يجب الفصل بين الامن المحلي المتعلق بالجرائم كالسرقة والجرائم الناجمة عن الخصومات الشخصية والعشائرية وانتهاكات القانون المدني وهو ما يمكن تركه للشرطة المحلية، وبين الامن العام الذي تتحرك على ساحته جهات عديدة في مقدمتها ما يسمى بتنظيمات الارهاب الدولي، وارى ان الامريكان في الحقيقة على جهل مطبق بالمجريات الحقيقية الفاعلة على الساحة العراقية وتاريخها في هذا الجانب، ما يفسر ارتكابهم الكثير من الاغلاط التراجيدية، وبإمكان كل (عارف) بحقيقة ما كان يجري سابقاً قراءة ما يحدث في هذه المنطقة، فسامراء مدينة لها هويتها العشائرية والدينية والمذهبية الخاصة، ويقصدها المسلمون من شتى انحاء العالم مما يوفر غطاء لتنقل عناصر ارهابية و (جهادية) من شتى المشارب والمذاهب وبجنسيات مختلفة، لتمارس هنا نشاطات في مقدمة اهدافها استمرار تردي الوضع الامني واثارة مشاعر بسطاء الناس وخوفهم وديمومة احساسهم بعدم الاستقرار، لتشكيل وسط يسهل التحرك خلاله واستغلاله.

في مصلحة من اقفال الدوائر الرسمية؟!

سامراء ومناطقها المجاورة واحدة من المواقع التي بادلت النظام السابق العداء، ولم يشطب رموز العائلة الحاكمة من ذاكرتهم ماظلوا يدعونه بمؤامرة السوامرة، ويمكن القول بيقين ان سكان المنطقة سعداء برحيل صدام الذي كان يجبرهم على دفع فواتير الماء والكهرباء والتلفون في تكريت فإذا تحرك بعض المسلحين تحت الراية القديمة فإنما يتحركون نكاية بجهات اخرى، اما الحديث عن (مقاومة شعبية) فهذه لها اشتراطاتها غير الموجودة على صعيد الواقع، نعم هناك عمليات تستهدف الاميركان، لكنها في مجملها اما فردية عاطفية او مدفوعة الثمن، او تحركات لتنظيمات اسلامية سلفية ذات خطاب (جهادي) يستهوي السذج والبسطاء، وعلى العموم فإن اصحاب المصلحة من سكان المدينة يدينون هذه العمليات ويشعرون انها تودي بمستقبل مدينتهم وابنائهم، والا فما هي نتائج اقفال الدوائر الرسمية والمدارس في المدينة.. على سبيل المثال؟

استفزاز امريكي

اما السيد انمار عماد مجيد الدوري، وهو من سكنة الحي العسكري في المدينة، فيقول ان الامريكان زادوا من درجة الاحتقان والتوتر في المدينة، بسلوكياتهم الاستفزازية، فأنا وعائلتي على سبيل المثال، تعرضت دارنا لطريقة غير طبيعية في التفتيش، فقد كسروا ابواب الغرف وحطموا ابواب الخزانات وتم اعتقالنا بمن في ذلك والدتي لا لسبب الا لأن والدي برتبة لواء وسبق له ان عمل مديراً لإدارة الحرس الجمهوري، وفي الحرب الاخيرة كان قائداً للفرقة الاولى في الموصل، ونحن لا نعرف اين هو الآن وليس لدينا ما نخفيه، لقد كان والدي برتبة عسكرية عالية وادى واجباته التي تفرضها مهنته فلماذا تعاقب العائلة؟

اقراص حرارية احرقت السيارات

وعند التجوال في احياء المدينة شاهدنا عدداً كبيراً من السيارات المحترقة، فأخبرنا السكان انها حصيلة المواجهات الاخيرة في المدينة عندما اقتحمتها القوات المتعددة الجنسيات، والحرس الوطني وشرح لنا احدهم وهو ضابط طيار سابق كيفية احتراق هذه السيارات قائلاً بعد ان اشتدت الصدامات في المدينة حلقت فوق سمائها طائرات من نوع A10 صائدة الدبابات كما تدعى، وهي طائرة مقاتلة ثابتة الجناح لكنها تملك قدرة عالية على المناورة، وتستخدم في الاشتباكات القريبة، وهي قادرة على ضرب سيارة في زقاق وادخال صاروخ في شباك دار وقد القت هذه الطائرات اقراصاً حرارية لها مهمتان الاولى للتمويه على الصواريخ ارض جو ذات المسار الحراري.

والمهمة الثانية هي احراق المكان الذي تسقط فيه على الفور، وهذا هو سر احتراق هذا العدد الكبير من السيارات.

ليل المدينة القلق

مر نهار الاحد ٢١ /١١ هادئاً لا يعكر صفوه شيء برغم ورود انباء عن حدوث صدامات راح ضحيتها ثلاثة عراقيين، الا أن ملاكات المستشفى العام العربات التي تستقلها عناصر من الحرس الوطني العراقي تتحرك بين الضلوعية ومنطقة البوحردان، وافاد السكان ان عمليات مداهمة جرت عصر هذا اليوم في المنطقة وفي ناحية المعتصم التي كان المسلحون قد فجروا مركز الشرطة فيها. وعند حلول الليل، كنا نتخذ طريقنا ثانية الى سامراء على الطريق الزراعي الممتد من ناحية المعتصم الى مشارف المدينة ومن ثم الى حي المعتصم وصولاً الى شارع الحولي ومن ثم الى حي المعلمين حيث دار مضيفنا، وفي طريق العودة صادفنا عدداً من المسلحين الملثمين، الذين اطمأنوا الى مرافقنا فتحدثوا لنا عن (عملياتهم الجهادية!) وكيف انهم غيروا تكتيكاتهم في المواجهة فلم يعودوا يستخدمون قاذفات الاربي جي والمدافع الرشاشة وانما اعتمدوا العبوات الناسفة التي تزرع على الطرق التي يسلكها الامريكان والحرس الوطني والشرطة ويتم تفجيرها عن بعد وفعلاً.. شاهدنا عدداً من الحفر التي احدثتها هذه العبوات على الشارع العام في حي المعتصم.

قذائف هاون في هدأة الليل

ولم نستقر كثيراً في دار مضيفنا حتى بدأ حوار الليل القلق في المدينة فإطلاق النار المتقطع لم يتوقف، كما ان قذائف الهاون كان بالامكان سماعها بين الفينة والاخرى لكن عدداً من اقارب وجيرة مضيفنا افادوا ان ثلاث قذائف هاون قد اطلقت بإتجاه بناية مديرية تربية سامراء التي يحتلها الامريكان وان قذائف الهاون الاخرى واطلاق الرصاص المتقطع، انما هو رد فعل الامريكان وهو رد فعل عشوائي، وربما ذهب ضحيته عدد من الابرياء وذلك ما يريده المسلحون فهم يجرون الامريكان الى هذا الموقع حين يهاجمونهم من داخل الاحياء السكنية.

وعلى العموم فإن ثمة استبشاراً بدأت ملامحه بالظهور من خلال تقليص ساعات منع التجول وتخفيف بعض اجراءات التفتيش والمداهمات ويتحرك مجلس شيوخ عشائر المدينة لدعم المجلس البلدي فيها لتجاوز عملية اغتيال السيد كامل عليان ممثل مجلس المدينة في المجلس البلدي لمحافظة صلاح الدين حيث تم اغتياله في منطقة القلعة قبل العيد بيومين على ايدي مجهولين.

مخاوف السكان

يطمح السكان بجدية الى عودة الامور الى طبيعتها وان كان ذلك ببطء فقد تعرضوا الى خسائر فادحة كما يقولون وتعقدت امورهم المعاشية في ظل اقتصاد المدينة شبه المشلول بسبب عزلها عن محيطها وقطع صلاتها بالمدن الاخرى، وانقطاع الوافدين والزوار عنها الا ان الجميع وبسبب من التجارب المريرة السابقة، يبدون تخوفهم من امكانية تفجر الامور ثانية بشكل دراماتيكي مفاجئ لا سيما ان احياء المدينة الداخلية لا تزال بعيدة عن احكام السيطرة عليها.

طوق محكم يسور المدينة بدعامات الاسمنت والاسلاك الشائكة والجنود